بلاغة الآيات المتشابهات نظمًا

الباحث/ ياسر مصطفى عبد المنعم

ملخص البحث

بعد أن بينت الدراسة التلاحم بين الآيات داخل السور، والتلاحم بين السور اتجهت الدراسة إلى بيان التناسب بصورة أوسع وأشمل من خلال تناول الآيات المتشابهات نظمًا على مستوى القرآن كله.

عرفت الدراسة المتشابهات وفرقت بين المتشابهات كمقابل لكلمة محكمات، ومتشابه بمعنى يشبه بعضه بعضًا، وفندت الدراسة زعم الملحدين بقولهم كيف يليق بالحكيم أن يجعل في القرآن آيات مبهمات.

ثم وضحت الدراسة أهمية علم المتشابهات نظمًا، واكتفت الدراسة بعرض موضعين الأول في البقرة، والثاني في الأعراف وتناولت جهود أكثر من خمسة عشر عالما في توجيه الاختلاف بينها.

Summary

After the study showed the cohesion between the verses within the surah, and the cohesion between the surahs, the study turned to the statement of proportionality in a broader and more comprehensive manner by dealing with similar verses systemically at the level of the entire Quran.

The study defined the similarities and distinguished between the similarities as corresponding to the word rulings, and similar in a sense similar to each other, and the study refuted the claim of atheists by saying how it is appropriate for the sage to make vague verses in the Quran.

Then the study clarified the importance of Systematics, and the study was limited to presenting two positions, the first in the cow, and the second in the Customs, and dealt with the efforts of more than fifteen scientists in directing the difference between them.

ظهر من المباحث السابقة مدى التلاؤم بين الآيات داخل السورة، وبين السور بعضها مع بعض، وأن ما كان أولا ما كان له أن يكون آخرًا، وما كان آخرًا ما كان له أن يكون أولا، بل ولا كان له أن يكون في أي مكان غير مكانه، فسبحان من هذا نظمه!

ويحاول الباحث في هذا المبحث بيان التناسب بصورة أشملَ وأوسع من نطاق آيات السورة الواحدة، أو نطاق التناسب بين ترتيب السور كما ظهر من قبل، فمبحثي هذا سيتناول التشابه على مستوى القرآن الكريم كله منطلقا من حقيقة قررها العلماء وهي أن القرآن كلام واحد مترابط، فقد قال كثير منهم: "إن القرآن كالسورة الواحدة"[١]، وقال بعضهم: إنه كالآية الواحدة يصدق بعضه بعضًا"[٢]، بل ذهب الكثير منهم إلى حد القول بأن: "القرآن بمنزلة الكلمة الواحدة"[٣]. ومن هنا سنتناول الآيات المتشابهات نظمًا.

وتلتقي نظرة علمائنا للآيات المتشابهات على مستوى السورة، وعلى مستوى القرآن الكريم كله مع مباحث التناسب في أنها تتبع وجوه الترتيب في النظم على مستوى السياق العام كله.

كلمة **المتشابهات**: اسم فاعل من تشابه، وفي اللسان[٤] أشبه الشيء ماثله وتشابه الشيئان: أشبه كل واحد منها صاحبه، والمشتبهات من الأمور المشكلات والمتشابهات: المتماثلات وقوله "وأخر متشابهات" .. قال أبو منصور وقد اختلف المفسرون في تفسيرها، فروي عن ابن عباس أنه قال: "المتشابهات ألم، الر ...، وما اشتبه على اليهود من هذه ونحوها" ووهَّن العلماءُ هذا الخبر عنه..، وروي عن الضحاك أنه قال : المحكمات ما لم ينسخ، والمتشابهات ما قد نُسِخ وقال غيره: "المتشابهات هي الآيات التي نزلت في ذكر القيامة والبعث ضَرب قوله تعالى: "وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ..." [سبأ: ٧]، وقوله: "**أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ**" [المؤمنون: ٨٢] فأعلمهم الله الوجه الذي ينبغي أن يستدلوا به على أن هذا من المتشابه عليهم كالظاهر لو تدبرروه فقال: " **وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ**..." [يس: ٧٨: ٨١] أي إذا كنتم أقررتم بالإنشاء والابتداء فما تنكرون من البعث والنشور؟! ومما يدل على هذا القول قوله تعالى: " **فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ**" [آل عمران: ٧] أي أنهم طلبوا تأويل بعثهم وإحيائهم فأعلم الله أن تأويل ذلك ووقته لا يعلمه إلا الله عز وجل. والدليل على ذلك قوله تعالى: " **هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ**..." [الأعراف: ٥٣] أي يوم يأتي تأويله يريد قيام الساعة، وما وُعدوا به من البعث والنشور".

وترى المتشابه في مقابل المحكم أيضًا في حديث الرسول (ﷺ) عن القرآن الكريم: "... واعتبروا بأمثاله واعملوا بمحكمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا آمنا به كل من عند ربنا[٥]، والمتشابه هنا ما لم يُتلق معناه من لفظه، وهو على ضربين أحدهما إذا رُد إلى المحكم عُرف معناه، والآخر ما لا سبيل إلى معرفة حقيقته فالمتتبع

له مُبتغٍ للفتنة؛ لأنه لا يكاد ينتهي إلى شيء تسكن إليه نفسه، وقوله " **وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ**" [آل عمران : ٧] ليس من الاشتباه المشكل إنما هو من التشابه الذي بمعنى الاستواء.

وعند ابن فارس(٦): "مادة شبه: (الشين والباء والهاء) أصل واحد يدل على تشابه الشيء، وتشاكله لونا ووصفًا، ومن المعلوم بداهة أن تشابه وزنه الصرفي تفاعل، وهذا الوزن الصرفي يدل على التفاعل بين اثنين فالشبه بين الشيئين هو شبه مُتَبَادَل.

وفي القرآن الكريم نجد قوله تعالى: " **اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ**.." [الزمر: ٢٣] قال محمد بن حميد شيخ الطبري "كتابًا متشابهًا: يشبه بعضه بعضا ويصدق بعضه بعضا ويدل بعضه على بعض"(٧) فلا تناقض بين آياته بل يشرح بعضه بعضًا، ويؤكد بعضه بعضًا، وعند الزمخشري "متشابهًا مطلق في مشابهة بعضه بعضًا، فكان متناولا لتشابه معانيه في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق، ومنفعة الخلق، وتناسب ألفاظه وتناصفها في التخير والإصابة، وتجاوب نظمه وتأليفه في الإعجاز والتمكين، ويجوز أن يكون مثاني بيان لكونه متشابهًا؛ لأن القصص المكررة لا تكون إلا متشابهة، والمثاني جمع مثنى بمعنى مُردّد ومكرر"(٨)

ومن اللافت للنظر نظرة شيخ الطبري في تعريفه للمتشابه والتي تلتقي مع نظرة علماء النص حديثًا؛ فالقرآن نص متكامل لا تنافر فيه فما أُجمِلَ في مكان فُصِّل في مكان آخر فالقرآن كله جملة واحدة.

وكذلك كانت نظرة الزمخشري بل زاد الأمر وضوحًا باستخدامه كلمات تتردّد على ألسنة علماء النص من مثل "بناء – إحكام – تناسب –" فهو يرى النص القرآني بناءً متكاملا مُحكم النُسج، قد أُختيرت كل لفظة فيه بعناية فهي جميلة في ذاتها وجميلة في موضعها وبين أترابها، وبذلك تسبق نظرة علمائنا الكلية للنص القرآني نظرة علماء النص للنص فجديدهم ليس بجديد، وقديمنا ليس بقديم إن هي إلا أسماءٌ سمَّوها.

وفي تفسير الفخر الرازي لقوله تعالى – "كتابًا متشابهًا": "أما كونه متشابهًا فاعلم أن هذه الآية تدل على أن القرآن كله متشابه" وقوله تعالى " **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ** [آل عمران: ٧] فيدل على كون البعض متشابهًا دون البعض(٩).

ولكن الباحث يرى أن الرازي هنا قد فاته أن المقصود من كلمة متشابهًا الواردة في سورة الزمر غير المقصود من وأُخر متشابهات "في سورة آل عمران؛ فمفهوم التشابه في آية آل عمران تقسيم القرآن الكريم إلى قسمين وهما الآيات المحكمة وهي الآيات البينات في معناها والقاطعة في دلالتها، ويشمل هذا معظم آيات القرآن الكريم، والقسم الآخر هو الآيات المتشابهة وهي الآيات التي يُشكل فهم معناها إما لغموض هذا المعنى في نفسه أو التباسه بغيره" وقد نقلوا عن ابن عباس أنه قال: المحكمات: هن الآيات الثلاث في

سورة الأنعام: " قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ" [الأنعام: ١٥١] إلى قوله- " **ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ" [الأنعام**: ١٥٣]، ونظيرها في الإسراء " **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ...**" [الإسراء: ٢٣]، إلى قوله تعالى: " **كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا** [الإسراء: ٣٨]

وعلق الرازي على ذلك بقوله: "التكاليف الواردة من الله تنقسم إلى قسمين:

١- ما لا يجوز أن يتغير في شرع إلى شرع وذلك كالأمر بطاعته والاحتراز عن الظلم والكذب....

٢- ومنها ما يختلف بشرع وشرع، كأعداد الصلوات، ومقادير الزكوات .. فالقسم الأول هو المسمى بالمحكم عند ابن عباس؛ لأن الآيات الثلاث مشتملة على هذا القسم، وجمع النيسابوري بين رأي الرازي ورأي ابن عباس فقال "المحكمات هي الآيات الثلاث في سورة الأنعام، وعلى هذا فالمحكم عنده ما لا يتغير باختلاف الشرائع، والمتشابهات هي التي اشتبهت على اليهود كأوائل السور أوّلوها على حساب الجمل؛ ليستخرجوا بقاء هذه الأمة فاختلط عليهم واشتبه"[١٠].

وقد زاد النيسابوري الأمر وضوحًا عند تعرضه لقوله تعالى: " **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ** " [آل عمران : ٧] فقال: "القرآن دل على أنه بكليته محكم وذلك قوله: " **الر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ۚ إِنَّنِي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**" [هود: ١: ٢] و " **الٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ**" [يونس:١] والمراد كون كله كلاما حقا فصحيح الألفاظ صحيح المعاني وأنه بحيث لا يتمكن أحد من الإتيان بمثله لوثاقة مبانيه، وبلاغة معانيه، ودل على أنه بتمامه متشابه " **كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ**" [الزمر:٢٣] والمراد يشبه بعضه بعضًا في الحسن والإعجاز والبراءة من التناقض والتناقض ثم إن هذه الآية " **هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ**" [آل عمران : ٧] دلت على أن بعض القرآن محكم وبعضه متشابه فيعني ههنا بالمحكم ما هو المشترك بين النص والظاهر، وبالمتشابه القدر المشترك بين المجمل والمؤول[١١].

وكل واحد[١٢] من أصحاب المذاهب يدعي أن الآيات الموافقة لمذهبه محكمة ولقول خصمه متشابهة فالمعتزلي يقول: " **لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ**" [الأنعام: ١٠٣] محكم، وقوله: " **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ**" [القيامة: ٢٢، ٢٣] متشابه والسني بالعكس فلا بدّ من قانون يُرجع إليه، ولم يرفض النيسابوري الدليل اللفظي للترجيح؛ لأنه غير قاطع ألبتة، فلا يجوز التعويل عليه في المسائل الأصولية، ومن ثم يكون صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح بالدلالة العقلية القطعية فقط.

ولعل ملحدًا يطعن قائلا: كيف يليق بالحكيم أن يجعل كتابه المرجوع إليه في دينه الموضوع إلى يوم القيامة بحيث يتمسك به كل صاحب مذهب فمثبت الرؤية يتمسك بقوله: " **وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ** " [القيامة: ٢٢، ٢٣] ونافيها "نافي الرؤية" بقوله: " **لَّا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ** " [الأنعام: ١٠٣] فكل واحد يُسمى الآيات الموافقة لمذهبه محكمة، والمخالفة متشابهة، وربما آل الأمر في ترجيح بعضها على بعض إلى وجوه ضعيفة، وهذا لا يليق بالحكمة مع أنه لو جعل كله ظاهرا جليًا خالصا عن المتشابه نقيا كان أقرب إلى حصول الغرض، والشبهة السابقة من تلبيس إبليس قد دحضها النيسابوري بأدلة دامغة وخلاصتها:

١- متى كانت المتشابهات موجودة كان الوصول إلى الحق أشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب.

٢- لو كان كله محكمًا "مضاد متشابه" كان مطابقا لمذهب واحد فقط فكان يُنفِّر أرباب باقي المذاهب عن قبوله والانتفاع به، وإذا كان مشتملا على القسمين فحينئذ يطمع صاحب كل مذهب ما يؤيد مقالته فيجتهد في فهم معانيه فتصير المحكمات مفسرة للمتشابهات ويصل للحق.

٣- إذا كان فيه محكم ومتشابه احتاج الناظر فيه إلى الاستبانة بالدلائل العقلية فيتخلص من ظلمة التقليد إلى ضياء البينة، واحتاج أيضًا إلى تحصيل علوم أُخر مثل: الصرف والنحو والبيان وأصول الفقه ... ولما في المشابهة من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه.

٤- القرآن الكريم يشتمل على دعوة الخواص والعوام، وطباع العوام تنبو في الأغلب عن إدراك الحقائق فمن سمع منهم في أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيّز ولا مشار إليه ظن أن هذا عدم ونَفَى، فوقع في التعطيل فخوطبوا بألفاظ دالة على بعض ما توهموه مخلوطًا بما يدل على الحق الصريح

فالأول: وهو الذي خوطبوا به أول الأمر من باب المتشابهات، والثاني وهو الذي يكشف لهم آخر الحال من قبيل المحكمات.

ويوضح لنا الرازي التشابه المقصود في آية الزمر بقوله: "هذا التشابه يحدث في أمور أحدها أن الكاتب البليغ إذا كتب كتابا طويلا فإنه يكون بعض كلماته فصيحًا ويكون البعض غير فصيح، والقرآن يخالف ذلك: فإنه فصيح كامل الفصاحة بجميع أجزائه.

ثانيها: أن الفصيح إذا كتب كتابا في واقعة بألفاظ فصيحة فلو كتب كتابا آخر في غير تلك الواقعة كان الغالب في كلامه في الكتاب الثاني غير كلامه في كتابه الأول، والله تعالى حكى قصة موسى في مواضع كثيرة من القرآن وكلها متساوية ومتشابهة في الفصاحة.

ثالثها: أن كل ما ورد فيه من الآيات والبينات فإنه يُقَوِّي بعضه بعضًا ويؤكد بعضه بعضًا.

رابعًا: أن هذه الأنواع كثيرة[١٣]

ومن هنا نرى استخدام النيسابوري أيضًا لمصطلحات علم النص ونظرته الكلية للقرآن الكريم فعبّر بكلمة "مبانيه" أي أن القرآن الكريم مَبانٍ تشابهت وتماثلت في قوتها وجمالها.

وكذلك كانت نظرة الرازي قبله فهو يرى التلاؤم والترابط بين كل سور القرآن بل وكل آياته على حد سواء وهو ما عُبِّر عنه في معايير النصية بـ السبك Chohesion والحبك coherence فالقرآن جملة واحدة.

ومما سبق يتضح أن مقصود المتشابه عند الرازي لآية الزمر مختلف تماما عن مفهومه في آية آل عمران، كما وضح الرازي أن كلام البليغ إذا طال لا يتساوى أوله وآخره ووسطه فصاحة فنرى اختلافا واضحًا بين أجزاء الكلام الواحد شعرا كان أم نثرا، أما القرآن الكريم فكله على مستوى واحد من البلاغة، وكذلك فإن كلام البليغ يختلف إذا تعدد، ولكن القرآن الكريم ذكر قصة موسى (كمثال واضح على التشابه) في مواضع كثيرة وكلها متساوية وبليغة في موضعها. وهذا يذكرنا بتعريف الآلوسي للمتشابه "والمراد بكونه متشابهًا هنا تشابه معانيه في الصحة والإحكام والابتناء على الحق والصدق واستتباع منافع الخلق في المعاد والمعاش وتناسب ألفاظه في الفصاحة وتجاوب نظمه في الإعجاز، وما أشبه هذا بقول العرب في الوجه الكامل حسنا وجه متناصف كأن بعضه أنصف بعضًا في القسط والجمال[١٤] "أي أن توزيع الجمال والحسن متساوٍ في الآيات، ونلاحظ من تعريف الآلوسي للمتشابه نظرته الكلية للنص القرآني وإدراكه للتلاؤم والتناسب بين كل آيات القرآن وسوره وتساويها في الحسن والجمال، ونلاحظ أيضًا استخدامه لكلمة "ابتناء" مما يدل على نظرته لآيات القرآن كأنها مبانٍ وتلك النظرة للنص هي نفس نظرة علماء النص حديثًا ونرى إضافة عند القرطبي تتمثل في أن التشابه ليس مقصورًا على آيات القرآن فقط بل تخطى ذلك إلى تشابه الآيات مع كتب الله المنزلة جميعًا فيقول: "كتابا متشابهًا يشبه بعضه بعضًا في الحسن والحكمة ويصدق بعضه بعضًا، ليس فيه تناقض ولا اختلاف وقال قتادة يشبه بعضه بعضًا في الآي والحروف، وقيل يشبه كُتب الله المنزلة على أنبيائه لما يتضمنه من أمرٍ ونهى وترغيب وترهيب وإن كان أعم وأعجز"[١٥]

ومن هنا نرى النظرة قد اتسعت فلم تشمل التكامل والترابط بين آيات وسور القرآن فقط كما رآها الرازي والنيسابوري ومن قبلهما الزمخشري بل تعدَّت إلى الترابط بين كل كتب الله المنزلة.

ويستدل البقاعي من خلال تعريفه للمتشابه على إعجاز النظم القرآني فالقرآن قد نزل في أكثر من عشرين سنة في أزمنة وأمكنة مختلفة ومع ذلك فلا تفاوت في لفظه أو معناه (وهما ما عُبِّر عنهما في علم النص بالسبك والحبك).

ويُفرِّق البقاعي بين متشابه ومشتبه فالأخيرة لا يُمدح بها فيقول: "متشابهًا أي في البلاغة المعجزة والموعظة الحسنة لا تتفاوت فيه أصلا في لفظ ولا معنى (وهما ما عُبر عنهما في علم النص بالسبك والحبك) مع كونه نزل مُفرَّقا في نيف وعشرين سنة، وأما كلام الناس فلا بد فيه من التفاوت وإن طال الزمان في التهذيب سواء اتحد زمانه أو لا، والاختلاف في المختلف في الزمان أكثر ولم يقل مشتبهًا لئلا يظن أنه كله غير واضح الدلالة وذلك لا يُمدح به"[١٦]

وأما مفسرنا النيسابوري فوضح أن التشابه بين آيات القرآن الكريم في وجوه الإعجاز اللفظي والمعنوي والنظم والأسلوب وكشف الغيوب واحتوائه على أصول العلوم "كتابا متشابهًا: أنه يشبه بعضه بعضًا في الإعجاز اللفظي والمعنوي (وهو ما عُبِّر عنه في علم النص بالسبك والحبك) والنظم الأنيق، والأسلوب العجيب والاشتمال على الغيوب وأصول العلوم، وقوله "وأخر متشابهات" فيكون صفة لبعض القرآن، وقيل يشبه اللفظ والمعنى مختلف"[١٧] ومن هنا تظهر فطنة علمائنا السابقين، فقد سبقوا علماء النص بقرون وذلك لأنهم بحثوا العلاقات والوسائل والآليات التي جعلت من النص القرآني كلا متماسكا" وحين حدد ديبوجراند ودريسلر سبعة معايير للنصية Textually أي ما يكون بها المنطوق أو المكتوب نصا كان المعياران الأولان في ترابط النص هما: السبك chohesion، والحبك cohermco وقد بحث ديبوجراند ودريسلر وغيرها الأدوات أو الوسائل التي تؤدي إلى سبك سطح النص أو ظاهره surface text [١٨] والإعجاز اللفظي الذي أشار إليه النيسابوري هو السبك والإعجاز المعنوي هو الحبك، وقد عبَّر النيسابوري عن الترابط اللفظي أيضًا في تفسيره بكلمة "النسق" وعبر عن الترابط المعنوي بكلمة "النظم".

ومن خلال ما سبق فإن كل من ذكرتهم آنفًا "النيسابوري القرطبي البقاعي، الرازي، الزمخشري .... رأوا القرآن الكريم نصا كاملا متكاملا مترابطا ونظروا إليه نظرة كلية قبل معرفة علماء النص بعلم النص.

وكلمة النظم نجدها في اللسان "النظم" التأليف، ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، وكل شيء قرنته بآخر أو ضممته بعضه إلى بعض؛ فقد نظمته[١٩]، وفي مقاييس اللغة "النون والظاء والميم أصل واحد يدل على تأليف شيء"[٢٠].

وقد وجد الباحث أن علماءنا يستخدمون كلمة المتشابهات (جمعًا أو مفردة) للدلالة على مفهوم آخر وهو هذا الفن القرآني المختص بالآيات القرآنية المتشابهات من حيث النظم، وهي عنصر مشترك في أغلب عناوين الكتب المختصة بهذا الفن ومن أوائل أولئك نجد من القراء السبعة حمزة الزيات ت ١٥٨هـ ونافع بن عبد الرحمن ت ١٧٠هـ لهما كتابان مفقودان بعنوان متشابه القرآن، والكسائي ت ١٨٩هـ له كتاب مشتبهات القرآن وقد حققه أ.د/ محمد داود، والبرهان في متشابه القرآن للكرماني ت بعد ٥٠٠هـ وقد غيَّر محقق الكتاب العنوان إلى أسرار التكرار، ومتشابه القرآن على حروف المعجم لأحمد بن يزيد

القرطبي وهو غير القرطبي المفسر، وكشف المعاني في متشابه المثاني لبدر الدين بن جماعة تحقيق أ.د/ محمد داود، وإرشاد الرحمن لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن لابن عطية الأجهوري ت ١١١٠هـ.

ونجد أيضًا فصولاً داخل بعض المؤلفات فيها نفس الكلمة "المتشابه" ومن ذلك نجد في كتاب البرهان للزركشي بابًا بنفس الاسم.

ونخلص مما سبق إلى أن لكلمة متشابهات في القرآن مفهومين الأول هو المفهوم الذي ينطبق على جميع القرآن لما بين آياته من التشابه في التناسب واستقامة النظم وتصديق بعضه بعضا وتصديق ما جاء في الكتب المنزلة قبله من حق، ويدخل ضمن هذا المفهوم العام للتشابه المفهوم الخاص لعلم المتشابه، أما المفهوم الآخر لكلمة المتشابهات فهو المفهوم الذي ينطبق على بعض آيات القرآن الكريم التي يُشكل فهم معناها إما لغموضه أو التباسه وغيره، وهي عكس كلمة محكم.

وقد آثر الباحث مصطلح المتشابهات نظمًا؛ لأن كلمة النظم تحدد ابتداءً المقصود بالتشابه هنا وهو التقارب والتماثل في النظم فيخرج به المفهوم الآخر للتشابه الذي يعني الغموض والالتباس كما أن كلمة النظم تخصص المفهوم الأول للتشابه والذي يشمل أنواعًا كثيرة ومن ثم يقتصر على التشابه الخاص بالنظم. وقد استبدلت كلمة النظم بكلمة اللفظ؛ لأن بحث الآيات المتشابهات لا يقوم على مجرد وجود ألفاظ متشابهة فيما بينها فقط بل هناك تشابه في عرض الألفاظ وطريقة نظمها.

وهناك تعريفات كثيرة للمتشابهات بعضها جامع غير مانع وبعضها مانع، غير جامع فيعرف قتادة المتشابه بـ"الآية تشبه الآية والحرف يشبه الحرف[٢١] "وقول ابن قتيبة" وأصل التشابه أن يشبه اللفظُ اللفظَ في الظاهر، والمعنيان مختلفان، قال الله عز وجل- في وصف ثمر الجنة " **وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ** " [البقرة: ٢٥] أي متفق المناظر مختلف الطعوم، وقال: " **تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ** " [البقرة: ١١٨] أي يشبه بعضها بعضًا في الكفر والفسوق ... يقال لكل ما غمض ودق متشابه"[٢٢].

وذكر الطبري تعريفا عن العلماء وهو "المتشابه هو ما اشتبهت الألفاظ به من قصصهم – أي الأمم ورسلهم- عند التكرير في السور، بقصة باتفاق الألفاظ واختلاف المعاني، وبقصة باختلاف لألفاظ واتفاق المعاني"[٢٣]، وعرف الزركشيُّ المتشابه بقوله: "إيراد القصة الواحدة في صور شتى وفواصل مختلفة[٢٤].

وكل التعريفات السابقة غير دقيقة فقول قتادة يقصر التشابه على آية مع آية فقط، وقد يكون التشابه داخل آية واحدة كما في قوله تعالى: " **نَادَىٰٓ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ أَصۡحَٰبَ ٱلنَّارِ أَن قَدۡ وَجَدۡنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقّٗاۖ فَهَلۡ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمۡ حَقّٗاۖ قَالُواْ نَعَمۡۚ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنُۢ بَيۡنَهُمۡ أَن لَّعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ**" [الأعراف: ٤٤] فهذه الآية من المتشابه بالذكر والحذف، فلم يذكر مفعول "وعد" مع أصحاب النار وذكره مع أصحاب الجنة. وتعريف ابن قتيبة تعريف لغوي عام، وتعريف الطبري

غير جامع؛ لأنه يُقصر التشابه على موضوع واحد وهو قصص الأمم والرسل فقط. وتعريف الزركشي هو نفس تعريف الطبري ولكن بأسلوب مختلف ففيه نفس العيب وهو قصر التشابه على القصص فقط.

وهناك تعريف أكثر دقة عند الكِرماني وهو: "الآيات التي تكررت في القرآن وألفاظها متفقة ولكن وقع في بعضها زيادة أو نقصان أو تقديم أو تأخير أو إبدال حرف مكان حرف أو غير ذلك مما يوجب[٢٥] اختلاف بين الآيتين أو الآيات التي تكررت من غير زيادة أو نقصان

وعدَّ د/ سعد عبد العظيم هذا التعريف[٢٦] أفضل التعريفات إلا أنه لو استبدل بكلمة "تكررت" وردت أو "تشابهت لكان التعريف أشد دقة

وهناك تعريف حديث عند سامي بن عبد العزيز وهو "الآيات المتشابهات في طريقة نظمها وفي اختيار ألفاظها، والتي هي مع تشابهها مختلفة فيما بينها بتقديم أو تأخير أو تعريف أو تنكير أو إظهار أو إضمار أو حذف أو تبديل إلى غير ذلك من الاختلافات[٢٧] ويؤخذ عليه أيضًا أنه غير جامع؛ لأنه لم يشمل التشابه داخل أجزاء الآية الواحدة كما سبق توضيحه.

وللباحث تعريف حاولت فيه قدر جهدي الابتعاد عن كل المآخذ السابقة وهو "المتشابه: أن تتماثل أجزاء الآية الواحدة أو أكثر من آية لفظا أو معنى أو كليهما فيكون بينها اتفاق تام مع تنوع الغرض أو المقام أو كليهما أو يكون بينهما اختلاف".

ومن أشهر التصانيف التي بحثت المتشابهات "درة التنزيل وغرة التأويل" للخطيب الإسكافي ت ٤٢٠هـ، والبرهان في توجيه متشابه القرآن للكرماني ٥٠٥هـ، وملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظي في آي التنزيل لأبي الزبير الغرناطي ت ٧٠٨هـ.

وفي اعتقاد كثير من الباحثين أن أول من تحدث عن المتشابهات الخطيب الإسكافي في درة التنزيل ولعل الداعي إلى ذلك الاعتقاد قول الإسكافي: "تأملت كتب المتقدمين والمتأخرين، وفتشت عن أسرار معاني المتأولين المحققين المتبحرين فما وجدت أحدًا من أهلها بلغ غاية كنهها كيف ولم يقرع بابها ولم يفتر عن نابها، ولم يسفر عن وجهها ففتقت من أكمام المعاني ما أوقع فرقانًا وصار لمبهم المتشابه وتكرار المتكرر تبيانًا".[٢٨]

وأكد هذا الاعتقاد ابن الزبير الغرناطي بقوله: "ورد عليَّ كتاب لبعض المعتنين من جلة المشارقة- نفعه الله – سماه بكتاب درة التنزيل وغرة التأويل" قرع به مغلق هذا الباب وأتى في هذا المقصد بصفو من التوجيهات لباب، وعُرف بأنه باب لم يوجف عنه أحد قبله بخيل ولا ركاب، ولا نطق ناطق قبله فيه بحرف مما فيه، وصدق رحمه الله"[٢٩].

ويرى الباحث عدم صحة الرأي السابق لسببين:

أولا: أن الرسول(ﷺ) والصحابة والتابعين هم أول من قرعوا باب المتشابه النظمي عامة وتوجيهه خاصة.

ثانيًا: أن مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) هو أول من ألف في المتشابه النظمي عامة وفي توجيهه خاصة من خلال كتابه "الآيات المتشابهات أو متشابه القرآن".

وقد أكد د/ سعد عبد العظيم ريادة مقاتل بن سليمان لعلم المتشابهات في أكثر من مكان، فقد وضحت تلك الريادة في كتابه البلاغة العربية وفي بحث نشره عن مقاتل وريادته في التأليف في المتشابهات في مجلة دراسات عربية وإسلامية بعنوان: "مقاتل بن سليمان والعلوم القرآنية" عام ١٤١٦هـ وأيضًا في مقدمة كتابه القيم استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، وفي بحث نشرته مجلة كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٤١٩هـ بعنوان: "استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات وبذلك أثبت الباحث أن ريادة التأليف في المتشابهات لمقاتل وليست للإسكافي.

ومن الأدلة على أن الرسول (ﷺ) أول من فتح باب توجيه المتشابهات أنه حين نزل قوله تعالى: "فإن مع العسر..." [الشرح: ٥، ٦] فرح واستبشر وقال: "لن يغلب عسر يسرين"[٣٠] وهذا التوجيه النبوي لتكرار الآية يشير إلى قاعدة معروفة وهي أن النكرة إذا تكررت تعددت، وأن المعرفة إذا تكررت توحدت فالعسر جاء مرتين معرفا فأصبح عسرا واحدًا، أما كلمة اليسر فتكررت وهي نكرة فتعددت، وبذلك وجد يسران مقابل عسر واحد.

وكذلك حين بين (ﷺ) أن آيتي التكاثر الثانية والثالثة ليستا من التكرار إنما هي من المتشابه؛ وذلك لاختلاف ما يتعلق بكل آية فقوله تعالى " **كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ** " [التكاثر: ٣] يعني لو دخلتم قبوركم " **ثُمَّ كَلَّا سَوۡفَ تَعۡلَمُونَ** " [التكاثر:٤] يقول لو خرجتم من قبوركم إلى محشركم"[٣١]

ومما يُحزن أن كتاب الآيات المتشابهات أو متشابه القرآن لـ مقاتل بن سليمان مفقود ولم يصلنا منه شيء إلا ما ذكره أحمد بن الملطي عن مقاتل في كتابه "الردُّ والتنبيه على أهل الأهواء والبدع، وما ذكره مقاتل في تفسيره.

ومن إشارات مقاتل للآيات المتشابهات – والتي كان الشعراوي يذكرها في خواطره كثيرًا "وما أدراك كل شيء منه في القرآن قد أخبرك ما هو، وكل شيء في القرآن وما يدريك فلم يخبره ما هو"[٣٢].

أي أن كل ما ورد في القرآن "وما أدراك" فإن الإجابة تأتي بعدها مباشرة، وقد وردت وما أدراك اثنتي عشرة مرة :

١- " **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحَآقَّةُ** " (الحاقة: ٣)

٢- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سَقَرُ** (المدثر: ٢٧)

٣- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلۡفَصۡلِ** (المرسلات: ١٤)

٤- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا يَوۡمُ ٱلدِّينِ** (الانفطار : ١٧)

٥- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا سِجِّينٞ** (المطففين : ٨)

٦- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا عِلِّيُّونَ** (المطففين: ١٩)

٧- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ** (الطارق: ٢)

٨- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ** (البلد: ١٢)

٩- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ** (القدر: ٢)

١٠- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡقَارِعَةُ** (القارعة : ٣)

١١- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ** (القارعة: ١٠)

١٢- **وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡحُطَمَةُ** (الهمزة: ٥)

وفي كل مرة من المرات السابقة نجد الإجابة مباشرة بعد وما أدراك، فمثلا، وما أدراك ما الحطمة بعدها الإجابة "نار الله الموقدة".

ومن المعلوم أن الآيات التي ورد فيها "وما يدريك" ثلاث آيات وهي قوله تعالى: "... **وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا** " [الأحزاب: ٦٣] و " **ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ وَٱلۡمِيزَانَۗ وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ قَرِيبٞ**" [الشورى: ١٧] و " **وَمَا يُدۡرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ** " [عبس : ٣]

ويرى د/ سعد عبد العظيم[٣٣] أن ما قاله مقاتل عن الآيات التي ورد فيها وما يدريك فيه نظر؛ لأن في هذه الآيات الثلاث أخبر الله نبيه (ﷺ) بالإجابة عن المسئول عنه لكنها إجابة غير مباشرة، والباحث لا يتفق مع د/ سعد في ذلك؛ لأن ما بعد وما يدريك وهو بالترتيب لعل الساعة تكون قريبا/ لعل الساعة قريب/ لعله يزكى، ليست إجابات أصلا.

المراحل التي مر بها علم توجيه المتشابهات

مرَّ هذا العلم بأربع مراحل[٣٤]:

المرحلة الأولى: النشأة والنمو حيث كان عبارة عن ملاحظات موجزة مفرقة دون ربط كل آية بسياقها داخل علوم التفسير والقراءات والفروق اللغوية وإعجاز القرآن وأفراد القرآن[*].

المرحلة الثانية: مرحلة التطور أصبح العلماء يعتمدون على بيان الفروق بين الآيات المتشابهات من خلال ربط كل آية بسياقها.

المرحلة الثالثة: مرحلة النضج والتأليف حيث شرع العلماء يؤلفون الكتب في توجيه وكشف أسرار التشابه.

المرحلة الرابعة: مرحلة الاكتمال ونعني بالاكتمال أن تكتمل دراسة الآيات المتشابهات في القرآن كله عن طريق أن يضيف اللاحق على من سبقه آيات جديدة لم يدرسها.

مناهج كتب المتشابهات

من خلال اطلاعي على كتب المتشابهات التي أتيحت لي وجدتها تنقسم إلى أقسام:

١- قسم يقوم على جمع الآيات المتشابهات فقط ولا يعلق عليها وهذا الجمع يعتبر إحصاء للمتشابهات، وهو مفيد لحفظة القرآن لكنه غير كافٍ، ومن أمثلة ذلك كتاب **"مشتبهات القرآن"** للكسائي ت ١٧٩م والذي حققه د/ محمد داود، دار المنار، ١٩٩٨م، وقد قسم الكسائي كتابه إلى أبواب أولها: ما جاء على حرف واحد أي ليس له نظير مثل " **يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ** " (البقرة: ٢١)، وباقي القرآن " **يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ** "، ويقصد بما جاء على عشرين حرفا: أي ما تكرر وروده في القرآن عشرين مرة مثل: "إن في ذلك لآية" جاءت عشرين مرة وكتاب **"المختصر المفيد في متشابهات القرآن المجيد"** د/ سعاد عبد الفتاح ط٢٠٠٥، وموسوعة **"الجامع المبين لمتشابهات القرآن القيم"** د/ أحمد عبد المقصود.

وكذلك كتاب **"عون الرحمن في حفظ القرآن"** لأبي ذر القلموني فقد اكتفى بحصر الآيات المتشابهات، ومقارنة قصص الأنبياء دون توجيه للمتشابه.

٢- قسم يقوم على نظم مواضع المتشابهات في منظومة شعرية مثل **"هداية المرتاب وغاية الحفاظ والطلاب في تبيين متشابه الكتاب"** للسخاوي [٦٤٣هـ]، وأول متشابه تعرض له في سورة البقرة[٣٥] وهو:

واقرأ فأنزلنا بآي البقرة على الذين ظلموا مُخبرة
لكن فأرسلنا عليهم جاء في سورة الأعراف يقينا فاعرف
وآخر الآية يفسقون فيها وفي الأعراف يظلمون

فهو يشير إلى آية البقرة " **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا** .." [البقرة: ٥٩]، وتشابهها مع الأعراف " **فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا**..." [الأعراف: ١٦٢]، فآية البقرة استخدمت "أنزلنا" وآية الأعراف "فأرسلنا" وختمت آية البقرة بـ "يفسقون"، وختمت آية الأعراف بـ "يظلمون".

ويرى الباحث أن هذه الطريقة تضيف إلى مهمة حفظ القرآن مهمة حفظ المنظومات مما يزيد الأمر صعوبة، ولو كان هناك توجيه لسبب التشابه لكان أفيد.

٣- قسم يُعنى بوضع روابط للآيات المتشابهات مع اسم السورة أو ترتيبها في المصحف ولكن يؤخذ عليها أنها متكلفة في معظم المواضع. ومن ذلك كتاب "**الإيقاظ لتذكير الحفاظ بالآيات المتشابهات الألفاظ** " د/جمال عبد الرحمن إسماعيل.

٤- قسم يقوم على ربط المتشابهات بالسياق الذي وردت فيه أي أنه يوجه التشابه والاختلاف بلاغيا، ومن أمثلة ذلك كتاب "**درة التنزيل وغرة التأويل**" للخطيب الإسكافي ٤٢٠هـ، وهو النبع الذي أخذ منه من بعده، وكذلك كتاب "**البرهان في توجيه متشابه القرآن**" لتاج الدين الكرماني ٥٠٥هـ، وكتاب "**ملاك التأويل القاطع لذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل**" لابن الزبير الثقفي ٧٠٨هـ، وقد استوعب فيه كتاب "**درة التنزيل**" وأضاف إليه الكثير، ومن ذلك أيضًا كتاب "**كشف المعاني في المتشابه من المثاني**" لبدر الدين ابن جماعة (٧٣٣هـ) وهذا القسم الأخير هو ما يعنينا في بحثنا هذا.

ولا يفوتنا أن نذكر أن هناك بابا مستقلا داخل كتاب البرهان في علوم القرآن عقده الزركشي لمتشابه القرآن تحدث فيه عن تاريخ المتشابه، ورتب الآيات بناءً على نوع الاختلاف، ولا يمكن إهمال كتب التفسير والدراسات القرآنية عمومًا في إثراء هذا العلم، ومن أهم تلك المؤلفات "**الكشاف**" للزمخشري (٥٣٨هـ)، و "**مفاتيح الغيب**" للفخر الرازي (٦٠٦هـ)، و "**غرائب القرآن ورغائب الفرقان**" لنظام الدين النيسابوري موضع رسالتنا، و "**بدائع الفوائد**" لابن القيم (٧٥١هـ)، و "**الروض الريان**" لابن الريان (٧٧٠هـ)، و "**بصائر ذوي التمييز**" للفيروز أبادي (٨١٧هـ)، و "**اللباب**" لابن عادل الحنبلي (٨٨٠هـ)، و "**نظم الدرر**" للبقاعي (٨٨٥هـ)، و "**قطف الأزهار**" للسيوطي (٩١١هـ).

وفي العصر الحديث نرى مؤلفات د/ فاضل السامرائي وكتاب "ربط المتشابهات بمعاني الآيات" لدعاء الزبيدي، و"استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات" للدكتور/ سعد عبد العظيم.

أهمية علم المتشابهات نظمًا

يظهر من عناوين ومقدمات كتب المتشابهات أنها تسعى لرد شبهات المشككين في الإعجاز البلاغي للقرآن، وأن هذه الكتب تظهر مدى إعجاز البلاغة القرآنية.. فعنوان كتاب ابن الزبير مثلا: ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل.

وللعلماء أساليب[٣٦] في توجيه متشابه القرآن وهي:

١-**الأسلوب الأول** لا يرى فرقا كبيرا بين الآيات المتشابهة ولا يبحث عن سبب الاختلاف فهو يكتفي بالدفاع عن الاختلاف طالما لا يوجد تناقض بين الآيات، ومن ذلك ما ذكره الزمخشري عندما قارن بين قوله تعالى: " **وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ** ..." [البقرة : ٥٨، ٥٩]، وقوله تعالى: " **وَإِذْ قِيلَ لَهُمْ**..." الأعراف [١٦١: ١٦٢] حيث قال : "فإن قلت كيف اختلفت العبارة ها هنا وفي سورة البقرة؟ قلت لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض ولا تناقض بين قوله اسكنوا هذه القرية وكلوا منها، وبين قوله فكلوا؛ لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها: فقد جمعوا في الوجود بين سكناهم والأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها فهم جامعون في الإيجاد بينهم.

وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته .. و"أرسلنا" و"أنزلنا" ويظلمون ويفسقون من وادٍ واحد"[٣٧].

ومن كلام الزمخشري السابق نجده يحاول المساواة بين دلالة التعبيرين في كلا الموضعين حتى يدفع شبهه التناقض فقط دون أن يظهر سبب الاختلاف وبلاغته.

٢- **الأسلوب الثاني** قائم على تناول الاختلافات بين الآيات المتشابهة من خلال الظروف المكانية والزمانية التي صاحبت نزول القرآن ومن ذلك تناول السيوطي الاختلاف في تقديم البشارة، وتأخير الإنذار في قوله تعالى: " **إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا** " [البقرة : ١١٩] ثم نرى الترتيب معكوسا في قوله تعالى:"... **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ**..." [الأعراف: ١٨٨] فقال: "لما كانت هذه السورة مكية" [يقصد الأعراف] قدم النذارة، ولما كانت سورة البقرة مدنية قدم البشارة"[٣٨].

٣- **الأسلوب الثالث** القائم على تفسير ظاهرة المتشابه بكونها إثباتا لإعجاز النظم القرآني، ومجالا لتحدي العرب، فهم عاجزون عن الإتيان بمثل هذا النظم مبتدأ به ومكررا.. وهذا الأسلوب لا يتناول شواهد المتشابه النظمي حسب خصوصية كل منها وإنما يقدم جوابا عاما يصلح لكل شاهد، وزعيم هذا الأسلوب أبو بكر الباقلاني.

ومن أمثلة ذلك أنه عندما تعرض لمسألة تقديم "هارون" على "موسى" – عليهما السلام- في قوله تعالى: ".... **بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى** " [طه: ٧٠] قال: أما ما ذكروه من تقديم موسى على هارون – عليهما السلام- في موضع وتأخيره في موضع؛ لمكان السجع، وتساوي مقاطع الكلام؛ فليس بصحيح؛ لأن الفائدة عندنا غير ما ذكروه، وهي أن إعادة ذكر القصة الواحدة بألفاظ مختلفة تؤدي معنى واحدًا من الأمر الصعب الذي تظهر به الفصاحة وتتبين به البلاغة، وأعيد كثير من القصص في مواضع كثيرة مختلفة على ترتيبات متفاوتة، ونبهوا بذلك على عجزهم عن الإتيان بمثله مبتدأ ومكررًا.. . فعلى هذا يكون المقصد بتقديم بعض الكلمات وتأخيرها إظهار الإعجاز على الطريقين جميعًا، دون السجع الذي توهموه"(٣٩).

وعلى نفس المنوال نهج الزركشي نهج الباقلاني ففي بداية مبحث التشابه قال: "وحكمته: التصرف في الكلام، وإتيانه على ضروب ليعلمهم عجزهم عن جميع طرق ذلك؛ مبتدأ ومتكررا"(٤٠)

٤- **الأسلوب الأخير** يقوم على توجيه الآيات المتشابهة بناءً على المقارنة بين سياقات هذه الآيات في سورها- وقد تصعد أحيانا في النظر إلى رصد السياق العام للسورة. وهذا الأسلوب الأخير انتهجه معظم علماء فن المتشابه الخطيب الإسكافي- الكرماني، ابن الزبير الثقفي.. وأضاف البقاعي عليهم أنه لم يكتف بالنظر المحدود للآيات المتجاورة، بل ربط بين هذا العلم ابتداءً بالمقصد الكلي للسورة، ومثال ذلك تعليله لتقديم هارون على موسى في قول تعالى: "رب هارون وموسى" [طه: ٧٠] فقال: فسورة طه لها نظر عظيم إلى الوزير والإرشاد إلى طلبه .. وصرح فيها على لسان موسى عليه السلام بطلب الوزير بلفظه؛ فلذلك كانت العناية به أكثر، فقدم في الذكر؛ تنبيهًا على ذلك؛ ولذلك قيل فيها "إنا رسولا ربك" [طه: ٤٧] بالتثنية وفي الشعراء بالإفراد؛ لأنها لا عناية فيها بذلك"(٤١)

وكثيرا ما يخلط المفسر أو الباحث بين أكثر من أسلوب من الأساليب السابقة ولكن الشائع هو الأسلوب الأخير.

النيسابوري والآيات المتشابهة

قبل أن يعرض الباحث موقف النيسابوري من الآيات المتشابهات نوضح عموما الطرق الثلاث التي سلكها الباحثون في تصنيف الآيات المتشابهات.

الطريقة الأولى: وهي ترتيب الآيات المتشابهات حسب ترتيب السور والآيات في المصحف العثماني، وهي الطريقة المشهورة، وسار على هذه الطريقة الإسكافي في "درة التنزيل، والكرماني في "البرهان" وابن الزبير في "ملاك التأويل" وابن جماعة في "كشف المعاني"، والأنصاري في "فتح الرحمن" والفيروز آبادي في "بصائر ذوي التمييز" والأجهوري في "إرشاد الرحمن" وخليل ياسين في "أضواء البيان" وكشك في "رحاب

التفسير، وسعد عبد العظيم في استدراك ما فات والصامل وإبراهيم العجلي في "من بلاغة المتشابه اللفظي لكل منهما"

الطريقة الثانية:

ترتيب الآيات المتشابهات حسب مباحث علم المعاني: تقديمًا وتأخيرا وذكرا وحذفًا، وتذكيرا وتأنيثا.. وقد سار على هذه الطريقة الزركشي في البرهان، والسيوطي في الإتقان وصالح الششري في المتشابه اللفظي.

الطريقة الأخيرة:

ترتيب الآيات المتشابهات حسب مباحث البحث ثم ترتيب الآيات داخل كل مبحث حسب الطريقة الأولى، وقد سار على هذه الطريقة الراجحي في رسالته "متشابه النظم" ود/ سعد عبد العظيم في بحث له بعنوان من بلاغة الآيات المتشابهات في خلق الإنسان والجان" فقد قسم الراجحي الآيات حسب قصص الأنبياء ثم ذكر آيات كل نبي حسب ترتيب السور والآيات.

وهذه الطرق الثلاث السابقة ذكرها د/ سعد عبد العظيم(٤٢) في كتابه القيم استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ولكنها خاصة بالكتب التي أفردت للمتشابهات أما كتب التفسير فإن المفسر يعرض للآية والآية المتشابهة معها إما عند تفسيره للموضع الأول أو الثاني، وقد يقارن في الموضع الأول ثم يأتي في الموضع الثاني على حسب ترتيب السور والآيات فيزيد ويتوسع. وهذه هي الطريقة التي سلكها النيسابوري ولن يستطيع الباحث أن يعرض لكل ما تعرض له النيسابوري من الآيات المتشابهات نظما وسأكتفي بعرض بعض النماذج. مثال واحد يضم معظم حالات التشابه

ظهر مما سبق أهمية دراسة بلاغة الآيات المتشابهات نظما، والآن نحاول أن نظهر موقف النيسابوري من ذلك، وعلاقة ذلك بالترتيب ترتيب السور وترتيب الآيات.

وهل اكتفى النيسابوري بتوضيح عدم التناقض فقط كما فعل الزمخشري والبيضاوي مع بعض الآيات المتشابهات؟!

أم أنه وضح جوانب الإعجاز في المتشابهات؟!

وهل كان للترتيب دور بارز في بيان هذا الإعجاز أم لا؟!

وأول شاهد نذكره قول الحق- سبحانه وتعالى- في سورة البقرة " **وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُواْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُواْ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُواْ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُواْ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ٥٨ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ** " [البقرة: ٥٨،

٥٩] وقوله تعالى في سورة الأعراف " **وَإِذۡ قِيلَ لَهُمُ ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ وَكُلُواْ مِنۡهَا حَيۡثُ شِئۡتُمۡ وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا نَّغۡفِرۡ لَكُمۡ خَطِيٓـَٰتِكُمۡۚ سَنَزِيدُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٦١ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ قَوۡلًا غَيۡرَ ٱلَّذِي قِيلَ لَهُمۡ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِجۡزٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَظۡلِمُونَ** " [الأعراف: ١٦١، ١٦٢]، وقد آثر الباحث البدء بهذا الشاهد؛ لأنه أبرز مثال على الطريقة التكاملية في بيان أوجه التشابه بين الآيات ففيه أحد عشر اختلافا بين الموضعين يمكن ترتيبها بحسب مجيئها إلى الآتي:

١- الاختلاف في الصيغ:

أ- تمثل في اختلاف طريقة بناء الفعل بين "قلنا" في سورة البقرة و"قيل" في سورة الأعراف.

ب- الاختلاف في نوع الجمع بين "خطاياكم" في البقرة و"وخطيئاتكم" في سورة الأعراف.

٢- الإبدال وقد تمثل في قوله تعالى:

أ- في سورة البقرة "ادخلوا" وفي الأعراف "اسكنوا".

ب- في سورة البقرة "فأنزلنا" وفي سورة الأعراف "فأرسلنا".

٣- الاختلاف في الفصل والوصل وأنواع الروابط

أ- في البقرة "وسنزيد" وفي الأعراف "سنزيد"

ب- في البقرة "فكلوا" وفي الأعراف "وكلوا

٤- الاختلاف في الذكر والحذف:

أ- في البقرة ذكر "رغدًا" ولم يذكرها في الأعراف

ب- في الأعراف ذكر "منهم" ولم يذكرها في البقرة.

٥- الاختلاف في التقديم والتأخير:

تقديم قوله تعالى "وادخلوا الباب سجدًا" على قوله: "وقولوا حطة" في سورة البقرة وعكس الترتيب في الأعراف.

٦- الاختلاف في الإظهار والإضمار

وقد تمثل ذلك في قوله تعالى: "فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا" في البقرة، وفي الأعراف "فأرسلنا عليهم رجزا".

٧- تغاير الفواصل:

وقد تمثل ذلك في قوله تعالى في ختام آيتي البقرة بـ "... كانوا يفسقون وختام آيتي الأعراف بـ "... كانوا يظلمون" وقد تناول العلماء كل هذه الاختلافات، وكل أفاض الله عليه من الفتوحات.

بادئ ذي بدء أود أن أذكر أن من العلماء من حاول أن يظهر عدم التناقض بين الموضعين فقط ومن ذلك ما ذكره الطاهر ابن عاشور في بعض التعليلات فقال: "عبَّر في هذه الآية بـ "اسكنوا" وفي سورة البقرة بقوله "ادخلوا" لأن القولين قيلا لهم أي قيل لهم ادخلوا واسكنوها ففرق ذلك على القصتين على عادة القرآن في تغيير أسلوب القصص استحدادًا لنشاط السامع"(٤٣)

وكذلك في تعليله لتقديم الدخول سجدا على قول حطة ويقول: "وقدّم في سورة البقرة قوله " **وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا** " على قوله " **وَقُولُواْ حِطَّةٞ** " وعكس هنا (يقصد الأعراف) وهو اختلاف في الإخبار لمجرد التفنن، فإن كلا القولين واقع قدم أو أُخر"(٤٤)

وعلى نفس الشاكلة كان الآلوسي قبله فقال: " **وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا** " [الأعراف: ١٦١] ما فيها عكس ما هنا من التقديم والتأخير، ولا ضير في ذلك؛ لأن المأمور به هو الجمع بين الأمرين من غير اعتبار الترتيب بينهما"(٤٥)

وأكثر من ذلك نجده عند الزمخشري والذي لم ير سببًا واحدًا للاختلافات بين الموضعين اللهم إلا زيادة "منهم" وعللها بـ زيادة بيان أما الاختلافات العشر، بين الموضعين فقال: "لا بأس باختلاف العبارتين إذا لم يكن هناك تناقض، ولا تناقض بين قوله: " **ٱسۡكُنُواْ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةَ** " (وكلوا منها) وبين قوله "فكلوا"؛ لأنهم إذا سكنوا القرية فتسببت سكناهم للأكل منها؛ فقد جمعوا في الوجود بين سكناهم الأكل منها، وسواء قدموا الحطة على دخول الباب أو أخروها، فهم جامعون في الإيجاد بينهم، وترك ذكر الرغد لا يناقض إثباته، وقوله "نغفر لكم خطيئاتكم سنزيد المحسنين" موعد بشيئين: بالغفران وبالزيادة، وطرح الواو لا يخل بذلك؛ لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: وماذا بعد الغفران؟ فقيل له سنزيد المحسنين. وكذلك زيادة "منهم" زيادة بيان، "وأرسلنا" و"أنزلنا" و"يظلمون" و"يفسقون" من واد واحد"(٤٦).

وينقل صاحب حدائق الروح والريحان عن المراغي قوله "قال هنا " **وَقُولُواْ حِطَّةٞ وَٱدۡخُلُواْ ٱلۡبَابَ سُجَّدٗا** " [الأعراف:١٦١] وقدم هنا ما أخر هناك، وأخر ما قدمه، والواو لا تدل على طلب ترتيب بين الأمرين، فالاختلاف في التعبير دال على عدم الفرق بين تقديم هذا وتأخير ذاك وبين عكسه، إذ لا فارق بين أن يدعوا بقولهم: "حطة" أي حط عنا أوزارنا وخطايانا الذي هو بمعنى قولنا: اللهم غفرانًا، في حال التلبس بالتواضع والخضوع، وتنكيس الرءوس شكرا لله على نعمه عند دخول القرية، وبين أن يبدءوا بتنكيس الرءوس والخضوع والتواضع ثم يدعوا بقوله "حطة"(٤٧).

والباحث يعجب أشد العجب من هذا الموقف من المواضع المتشابهة فالنقولات السابقة عن ابن عاشور والزمخشري والآلوسي والهرري كلها تصب في اتجاه واحد وهو أن المعاني متساوية ولا فرق بين أي اختلاف، وهذا ما يأباه العقل، ويرفضه المنطق، ولا يستسيغه الذوق السليم، ومن الأمور التي حيرتني أن يصدر هذا الكلام عن أئمة في البلاغة وقامات ليس لها نظير (الطاهر ابن عاشور، الزمخشري، والآلوسي والهراري) ومن أمثال هؤلاء كثير ولكني اكتفيت بمثالين من القديم (الزمخشري والآلوسي) ومثالين من العصر الحديث وهما (ابن عاشور – والهرري)

بيد أن النيسابوري – ورغم أنه صرح أن تفسيره حاصل ما في الكشاف – ومفاتيح الغيب لم يرض أن ينحو هذا الاتجاه فلم ينقل من الكشاف أي كلمة من كلامه السابق القائم على مجرد إظهار عدم التناقض بين الموضعين بل نقل من الرازي أسرار التشابه بين الموضعين وأضاف وفصل فالرازي سأل عشرة أسئلة

لِمَ قال في سورة البقرة: "وإذ قلنا" وقال في الأعراف: "وإذ قيل لهم"؟ الجواب أن الله تعالى صرح في أول القرآن بأن قائل هذا القول هو الله تعالى إزالة للإبهام ولأنه ذكر في أول الكلام "ٱ **ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ** " [البقرة: ٤٠] ثم أخذ يعدد نعمه نعمة نعمة فاللائق بهذا المقام أن يقول: " **وَإِذۡ قُلۡنَا** " أما في سورة الأعراف فلا يبقى في قوله تعالى: "وإذ قيل لهم" إبهام بعد تقديم التصريح به في أول البقرة"(٤٨)

الهوامش:

---

(١) انظر معاني القرآن وإعرابه للزجاج ج٢/ ١٣٧، والمدخل لعلم تفسير كتاب الله تعالى لأبي النصر الحدادي/ ٤١٨، ومفاتيح الغيب للرازي ج ٣٠، ١٨٩، ج٣٢/ ٩٨ والجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٧/ ١٥٨، والروض الريان لابن الريان ج ١/ ١٧٨

(٢) الرازي، مفاتيح الغيب، ج ٣٢/ ٩٨

(٣) أبو النصر الحدادي، المدخل لعلم تفسير كتاب الله، دار القلم، دمشق، دارة العلوم، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، ص ٤٢٤

(٤) ينظر ابن منظور، لسان العرب مادة "ش/ ب/ ه"

(٥) الألباني (ت ١٤٢٠هـ) السلسلة الصحيحة ٥٨٧ حسن لجميع الطرق أخرجه الطحاوي في شرح مشكل الآثار (٣١٠٢) ابن حيان ٧٤٥، الحاكم ٣١٤٤ باختلاف يسير

(٦) ينظر ابن فارس مقاييس اللغة مادة (ش– ب– ه)

(٧) الطبري، مجلد ٩، ص ٦٧٥

(٨) الزمخشري، الكشاف، مجلد ٤، ص ١٦

(٩) الرازي مفاتيح الغيب، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ٢٠١٥م، مج ١٣، ص ٢٤٨

(١٠) نفسه، ص ٢٤٩

([11]) انظر، النيسابوري، غرائب القرآن، مجلد ١، دار الصفوة، القاهرة، ط١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م، ص ٦٨٦

([12]) انظر نفسه، ص ٦٨٧

([13]) الرازي، مفاتيح الغيب، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ط٣، ٢٠١٥م، مجلد ١٣، ج٢٦، ص ٢٤٩

([14]) الآلوسي، روح المعاني، مجلد ١٢، ص ٣٣١

([15]) القرطبي، مجلد ٨، ص ٤٩٢

([16]) البقاعي، نظم الدرر، مجلد ١، ص ٨٨

([17]) النيسابوري، غرائب القرآن، مجلد ٤، ص ٢٨٨٨

([18])جميل عبد المجيد، البديع بين البلاغة العربية واللسانيات النصية، ص ٧١

([19]) ابن منظور، لسان العرب، مادة (ن- ظ- م)

([20]) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة (ن — ظ — م)

([21]) الطبري — جامع البيان في تأويل القرآن- دار الريان للتراث ١٩٨٧- ٢٣/ ١٣٤

([22]) تأويل مشكل القرآن — تحقيق السيد صقر- دار التراث- ١٩٧٣/ ١٠١، ١٠٢

([23]) الطبري ٢٣/ ١٣٥

([24]) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ج١، ١١٢

([25]) الكرماني، البرهان في توجيه متشابه القرآن، تحقيق: أحمد عز، دار الوفاء، ١٩٩١، ص ١٠

([26]) انظر د/ سعد عبد العظيم، استدراك ما فات من بلاغة الآيات المتشابهات، ص ١٧

([27]) سامي عبد العزيز الوحدة السياقية للسور، ط١، ١٤٣٣هـ/ ٢٠٠٩م، ص ٤٢١

([28]) عبد المعطي السقا الجمالي، درة التنزيل، الخانجي، ١٩٠٨/ ٤٠٣

([29]) ابن الزبير الغرناطي، ملاك التأويل، تحقيق د/ محمود كامل، دار النهضة، مصر،١٩٨٥، ص ٤/ ٥

([30]) الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠، ٢ص ٥٧٥

([31]) السيوطي، الدر المنثور، دار الفكر، ١٩٩٣م، ٨ص ٦١١

([32]) ابن الملطي، التنبيه والرد، ص ٧٧

([33]) انظر سعد عبد العظيم، استدراك ما فات.. ص ١١

([34]) د/ سعد عبد العظيم، ينظر استدراك ما فات، ص ١٥، ١٦

[*] هو العلم الذي يختص بذكر الألفاظ التي يرد كل لفظ منها بمعنى واحد في جميع القرآن إلا في موضع أو اثنين، فيأتي بمعنى آخر مثل قول مقاتل: وكل شيء في القرآن النكاح يعني التزويج غير واحد في النساء " **ضج ضح ضخ ضم طح ظم** " [النساء: ٦] يعني الحلم، ابن ملطي في كتابه التنبيه والرد، ص ١١٨

([35]) محمد سالم محيسن، التوضيحات الجليلة شرح المنظومة السخاوية في متشابهات الآيات القرآنية، ط١، المكتبة المحمودية، القاهرة، د.ت، ص ٧

([36]) ينظر سامي عبد العزيز، الوحدة السياقية، ص ٤٣٠: ٤٣٨

([٣٧]) الزمخشري، الكشاف، ج٢، ص ١٧٠

([٣٨]) السيوطي، قطف الأزهار، ج٢، ص ١٠٧٣

([٣٩]) الزركشي، البرهان، ج١، ص ١١٢

([٤٠]) الطبري ٢٣/ ١٣٥

([٤١]) البقاعي، نظم الدرر، ج٥، ص ٣٥٢

([٤٢]) ينظر د/ سعد عبد العظيم، استدراك ما فات، ص ١٧، ١٨

([٤٣]) الطاهر ابن عاشور، التحرير والتنوير، مجلد ٤، ص ١٤٤

([٤٤]) نفسه، ص ١٤٥

([٤٥]) الآلوسي، روح المعاني، مجلد ٥، ص ١١٦

([٤٦]) الزمخشري، الكشاف، ٢/ ١٥٩

([٤٧]) الهرري، تفسير حدائق الروح والريحان، دار طوق النجاة، بيروت، لبنان، ١٠/ ١٩٢، ١٩٣

([٤٨]) الرازي، مفاتيح الغيب، ٢/ ٩٠